الأسباب الاقتصادية والاجتماعية لمعارضة قريش الدعوة إلى الإسلام

د. نبيه عاقل
كلية الاداب ـ جامعة دمشق

تحاول هذه الدراسة أن تتناول بالبحث والتحليل بعض الاحداث والظروف التي وجدت في مجتمع مكة قبل الاسلام، وموقف الاسلام ورسوله منها، وما طرأ على هذا المجتمع من تغيرات في ظل الدولة التي أقامها الاسلام على أساس من تعاليمه ، حيث شاعت عدالة اقتصادية واجتماعية كانت مثلا تطلعت اليه أجيال المسلمين على مر عصورهم ودولهم .

وطبيعي ان لا تستوعب الصفحات القليلة المخصصة لهذه الدراسة كل التفاصيل التي لابد منها لتتكامل جوانب البحث وتتضح الصورة على وجه مثالي، لذا أراني مضطرا لان ارسم الخطوط العريضة فقط، وأن أترك لفطنة القارىء ما لا يتسع له المجال أو ما هو معاد ومكرور .

ولن أعود بالذاكرة الى فترات سحيقة في القدم ، بل سأبدأ مع القرن السابق لبعثة الرسول الكريم وأحاول أن أوجه العناية الى بعض مواصفات المجتمع المكي قبل الاسلام ومظاهر الحياة واوجه النشاط فيه .

كانت قريش هي القبيلة التي تسكن مكة بعد جرهم وخزاعة ، كما تحدثنا المصادر العربية . وكان قصي بن كلاب اول بان لمجد قريش وموطد لنفوذها ، وكانت التجارة شغل القرشيين الشاغل وليس بدعا ان نقول ان مكة منذ ان ظهرت الى الوجود كانت مركزا تجاريا هاما ، وان ازدهارها كمركز تجاري مرتبط الى أبعد الحدود بوجود الحرم فيها ، وهو المنطقة التي تحرم فيها كل أنواع العنف والقتل . يضاف الى هذا أن موقعها الجغرافي ووجودها على مفترق الطرق التي تحمل

التجارة من اليمن الى سورية ومن الحبشة الى العراق قد ساعد على اضفاء الاهمية التجارية عليها . وهكذا فقد كانت مكة مقصد البدو الذين يرتادونها لشراء ما يحتاجون من البضائع التي تصلها من جميع الجهات بواسطة القوافل التجارية . ولم تأت نهاية القرن السادس الميلادي حتى وقعت معظم التجارة بين اليمن وسورية تحت ايديهم ومع مرور الزمن اخذت مكة تتحول من مركز تجاري فحسب الى مركز مالي هام تتم فيه عمليات مالية واسعة النطاق ، وساهم المكيون بانفسهم في النشاط التجاري العالمي فتاجروا مع العراق وبصورة خاصة مع الحيرة ، كما تاجروا مع بلاد الشام ، فكانوا ياتون اليها حاملين بضائع الهند ويعودون منها ومعهم الحبوب والزيت والخمور والاسلحة والمنسوجات والجواري . وهكذا كانت رحلة الشتاء والصيف ، وهكذا شاعت في لغتهم الفاظ تجارية عديدة ك : حساب ، وميزان ، وقسط وذرة ، ومثقال ، وقرض ، وسواها مما يتردد في القرآن الكريم الذي كان يمثل لغة العرب ابان التنزيل. وقد أدى هذا النشاط التجاري عند المكيين الى نشوء اعمال مصرفية ، ووجود فئة من الصيارفة الذين يهتمون بشؤون عملات الدول التي يتعامل المكيون معها . كما وجد بينهم المرابون الذين يقرضون الاموال للناس ويفرضون الفوائد الفاحشة على المدينين. ولن ادخل في متاهة التفسيرات العديدة التي يقدمها لنا ابن عباس واليعقوبي والطبري وسواهم في سبب تسمية قبيلة قريش ب « قريش » وعندي ان الذي لا يجد المرء غيره مذهبا يرتضيه في تفسير السبب الذي لأجله سميت هذه القبيلة بهذا الاسم هو ان تكون قريش من ((القَرْش))بمعنى الجمع ، لما كانوا يتعاطون من التجارة وجمع المال ،اذ كانوا معروفين بذلك عند العرب عامة ، فسموهم به . كما ان ابن هشام يذكر ان التقرش : التجارة والاكتساب ، وان القروش ايضا التجارة والاكتساب ويأتي على ذلك بشاهد من كلام العرب .

واذا اضفنا الى كل هذا أن القرشيين ابتدعوا النسيء (١) لتتطابق السنة الشمسية مع السنة القمرية فلا يخل برحلتي الشتاء والصيف التجاريتين اللتين تقعان في فصلين ثابتين بقطع النظر عن الاشهر الحرم ووقوعها في فصول تختلف من عام الى عام ،لوجدنا ما كان للتجارة من أهمية بالغة في حياة المكيين قبل الاسلام . ولم تعد التجارة وسيلة

---

(١) يقول المسعودي : ان العرب في الجاهلية : ((كانت تكبس في كل ثلاث سنين شهرا وتسميه النسيء)). أي انه كان يضاف شهر في كل ثلاث سنوات لكي تتطابق السنة الشمسية مع السنة القمرية . وقد رفض الاسلام النسيء . قال تعالى : ((انما النسيء زيادة في الكفر)) . وفي حجة الوداع قال صلوات اللهعليه : ((فلاشهر ينسأ ولا عدةتخطأ،وان الحج في ذي الحجة الى يوم القيامة)) .((الازرقي، ج١، ص ١٢٨) .

ارتزاق ومورد عيش بالنسبة للمكيين فحسب ، بل غدت الناظم لعلاقاتهم السياسية الدولية ، والمحور الذي تدور حوله شؤون اقتصادهم وعلاقاتهم بالقبائل العربية المختلفة ، والاطار الذي ينتظم حياتهم داخل مدينتهم ، والمعيار الذي تتدرج على أساسه رتبهم في المجتمع وما قام بينهم من فوارق في المجالين الاقتصادي والاجتماعي.

كما غدت مصالحهم التجارية هي التي تحدد انتماءهم الى هذا الحلف أو ذاك من الاحلاف التي قامت في مدينتهم قبل الاسلام ، كحلف المطيبين وحلف لعقة الدم وحلف الفضول وسواها . وقد استمر تطور هذه التحالفات والتكتلات القبلية في مكة بين فروع قريش المختلفة حتى عصر الرسول ، حيث كان هناك عند بعثته ثلاث فئات قرشية متطاحنة هي كما يلي : فئة اولى وتضم بني هاشم والمطلب وزهرة وتيم والحارث بن فهر وعدي ، وفئة ثانية وتضم : بني عبد شمس ونوفل واسد وعامر ، وفئة ثالثة وتضم : بني مخزوم وجمح وعبد الدار . ويمكننا ان نلاحظ ان الفئة الاولى كانت تتضمن جماعة حلف الفضول باستثناء اسد التي حل محلها بنو عدي . كما انه كانت بين الفئتين الثانية والثالثة علاقات ود ومصلحة مشتركة ، ولا سيما في الميدان التجاري .

وأما الفئة الثالثة فواضح انها جماعة لعقة الدم القديمة ، باستثناء عدي التي انتقلت الى صف الفئة الاولى . واذا كانت الوحدة والتضامن القبلي أمرين ضروريين تقتضيهما طبيعة الحياة في المجتمعات الصحراوية،واذا كان الشعور القبلي هو الشعور الذي يجمع افراد القبيلة الواحدة برباط الصالح المشترك ، فان الحال في مجتمع كالمجتمع المكي الذي كانت التجارة فيه عماد الحياة ، سارت على منوال مغاير لهذا الناموس الذي ينطبق على المجتمع الصحراوي خير انطباق .

فنمت في مكة فردية من نوع مختلف ، وذلك نتيجة للجو التجاري الذي كان يسيطر على حياتها ، اذ أنا نشاهد انه اذا اقتضت مصلحة الطبقة التاجرة في مناسبة من المناسبات ان ينفرد فرد او جماعة من بينها بقرار يعود عليها بالفائدة ، كانت تضرب بمصلحة الجماعة وقضية التضامن القبلي عرض الحائط وترجح مصلحتها . وهكذا ظهر في مكة نوع جديد من التضامن المبني على اساس من المصلحة التجارية . فعلى أساس من المصالح التجارية قامت الاحلاف ، كما أنه على أساس من هذا الشعور التجاري وحدت قريش صفوفها بعد بدر وجمعت شتاتها ، على ماكان بينها من خلافات ، لتقف وقفة موحدة ضد المسلمين الذين يهددون تفوقها التجاري. وسيؤدي هذا التطور بالضرورة الى ضعف الروابط المبنية على اساس قرابة الدم ، والى نشوء روابط موحدة جديدة .

وتجدر الملاحظة هنا ان التطور في تنظيم العلاقات القبلية في هذه الفترة من تاريخ مكة ، قد رافقه تطور اقتصادي نقل أقتصاد هذه المدينة من الشكل البدوي الذي كان عليه في السابق ، الى الشكل التجاري الرأسمالي مما زاد في تعقيد العلاقات بين افراد المجتمع وظهور طبقات (مستغلة) وطبقات (مستغلة) ، والى ظهور صراع طبقي بين الاغنياء ذوي المصالح المتسلطين ، والفقراء المحرومين . وقد لعب هذا المناخ الاقتصادي الجديد دورا هاما في الصراع العقائدي الذي قام في مكة بعد نزول الوحي والدعوة للاسلام بين فريقين :

فريق المؤمنين وهم من الثائرين على هذه الاوضاع او من المستضعفين المستغلين ، وفريق المعارضين المشركين الذين كانت مصالهم المادية المهددة حافزهم الوحيد للمعارضة كما سنبين بعد قليل . وهكذا فانه قبل ان يتنزل الاسلام على قلب الرسول الكريم كان الناس يتفاضلون بما يتكدس في خزائنهم من أموال وبما لهم من قوافل تقطع البوادي والقفار ، وبما يترتب على ثرواتهم هذه من مكانة وجاه . وكان لهم في هذا الدين وهذه الالهة التي يعبدون خير حام وسند فقد انحرفوا بدين ابراهيم الحنيف عن اصوله وتعاليمه الموحدة ، وعبدوا الجبت والطاغوت وعظموا الاصنام والاوثان ، واستقسموا عندها بالازلام ، واخذوا « يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » . ويذكر الازرقي (صاحب اخبار مكة ج ١ ، ص ٧٥ ـ ٧٦) انه كان في الكعبة ثلاثمائة وستون صنما يوم دخلها الرسول بعد فتح مكة . وبالرغم من انه ليس من اهداف هذا البحث ان يتناول وثنية العرب وديانتهم قبل الاسلام بالدراسة ، فانه لابد لنا ان نلاحظ ان رجال الاعمال المكيين قد استغلوا هذا الدين وشعائره ليربطوه ربطا محكما بما يعود بالخير على تجارتهم . فقد حددوا مواعيد عقد الاسواق التجارية وجميع مايتعلق بشؤون البيع والشراء وعمليات التبادل التجاري بما يتلاءم وموسم الحج ، فكانوا ، قبل ان يلغى النسيء ،اذا صادف الحج في شهر ذي الحجة خرجوا الى عكاظ (١) يوم هلال ذي القعدة فاقاموا هناك في بيع وشراء مدة عشرين يوما . وبعد انقضاء الايام العشرين يتركون عكاظ الى ذي المجنة (٢) فاقاموا به عشرا يبيعون ويشترون . فاذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا الى ذي المجاز (٣) فاقاموا به ثمان ليال يفعلون فعلهم في عكاظ وذي المجنة . ثم

---

(١) عكاظ : وراء قرن المنازل بمرحلة على طريق صنعاء من عمل الطائف على بريد منها . وهي سوق لقيس بن عيلان وثقيف .

(٢) المجنة : سوق اسفل مكة على بريد منها ، وهي سوق لكنانة ، وارضها من ارض كنانة .

(٣) ذو المجاز : سوق لهذيل عن يمين الموقف من عرفة على فرسخ من عرفة .

يخرجون يوم التروية(١) من ذي المجاز الى عرفة . وكان يوم التروية ، كما يقول الازرقي،(٢) يحضر الى هذه الاسواق التجار ومن يريد التجارة والبيع .

في هذا الجو من الفوضى الاقتصادية والاجتماعية ، في هذا التيه من شريعة الغاب وحق القوي ومجد الغني ، في هذا الليل الداكن يلف حياة المستضعفين ويؤرق جفون الرافضين الثائرين ، يتنزل الاسلام على قلب محمد بن عبد الله ، رافعا رايات العدالة في الدارين شعارا وقولا وعملا فيهرع اليه الذين أمضهم طول الانتظار وكاد ياسهم أن يدفع بهم الى قنوط وخيبة ، فيجدون في ظله ما افتقدوه طويلا وما كانوا يتوقون اليه من احقاق حق وازهاق باطل .

كان محمد يدعو الى دين الله سرا اول الامر ، ثم جاءه الامر بعلنية الدعوة في الاية الكريمة : « فاصدع بما تؤمر ، واعرض عن المشركين » ، فما كان منه الا ان نقل دعوته من مرحلة السر الى مرحلة العلن . ولم تقدر قريش اول الامر خطورة دعوته عليها وعلى مصالحها الاقتصادية ومكانتها الاجتماعية، فلم تعره اهتماما كبيرا ولا قدرت المخاطر التي ستترتب على نجاحه فيما يدعو اليه ، حتى انه في رواية منقولة عن الزهري ، يقول ابن سعد ان كفار قريش كانوا في الايام الاولى للدعوة غير منكرين لما يقوله الرسول الكريم : « فكان اذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون اليه أن غلام بني عبد المطلب نيكلم من السماء » ، (ابن سعد ، ج٣،ص١٩٩) . مما يدل على عدم اخذهم لدعوته مأخذ الجد ، او تقدير ماسيكون لها من اثار . ولكن الامر لم يطل وسرعان ما أخذت تتكشف لهم أبعاد الامور والمبادىء التي يدعو اليها محمد بن عبدالله وما سيكون لها من اثار وانعكاسات على أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . ويربط المؤرخون عادة بدء معارضة قريش للرسول الكريم بعيبه الهتهم التي يعبدونها دون الله ، وذكره هلاك ابائهم الذين ماتوا على الكفر ، الامر الذي جعل ثائرتهم تثور ويعلنوا العداء له (انظر رواية الزهري التي ينقلها ابن سعد في طبقاته جـ١،ص١٩٩). ولعل مايثير الانتباه في قضية ربط معارضة قريش لدعوة محمد بذمه الهتهم وعيبه ابائهم الذين ماتوا على الكفر هو ما يمكن ان يقوم من تساؤل عن مقدار ارتباط المكيين بآلهتهم ، وحرصهم عليها بحد ذاتها . وفي الاجابة عن هذا التساؤل ودون اللجؤ الى

(١) سمي يوم التروية لترويتهم من الماء بذي المجاز ، فقد كان المنادي ينادي ترووا من الماء لانه لا ماء بعرفة .

(٢) الازرقي ، اخبار مكة ، ج١ ، ص ١٢٩ .

شرح وتفصيل لا مجال لهما في هذه الدراسة يمكننا ان نجزم ان قضية استهتار المكي بالهته قضية اكيدة ، كما ان ايمانه بها كان من الضعف والتفكك بحيث لم تجد حنيفة ضيرا من اكل ربها الذي صنعته من حيس وعبدته دهرا ، ثم اصابتهم مجاعة فاكلوه ، فقال شاعرهم :

اكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعة

وحيث كسر امرؤ القيس القداح ورماها في وجه الصنم حين جاءه جوابه ينصحه بعدم الاخذ بثائر أبيه . كان المكي يعرف أن هذه الالهة لاتسمن ولا تغني من جوع وانه انما يعبدها : لتقربهم من الله زلفى ، وأنها شفيعتهم عند الله وواسطتهم اليه فقط . كما ان مصادرنا تحدثنا عن اشخاص مكيين تنصروا او تهودوا او عادوا لاعتناق دين ابراهيم ورفضوا عبادة الاوثان (يورد ابن حبيب في المحبر قائمة باسماء الذين رفضوا عبادة الاوثان من المكيين ، انظر ص ١٧١ — ١٧٢) .

وفي كل هذا ، وفي مناسبات اخرى سنعود للتذكير بها بعد قليل ، مايجعلنا نرى بوضوح ان عيب محمد لالهتهم لم يكن الامر الذي اثارهم ضده ، بل ربما كان الذي اثار مخاوفهم وجعلهم يحسون بخطر دعوة محمد هو ما قد ينجم عن هذه الثورة الدينية من انقلاب في المفاهيم والقيم السائدة في مجتمعهم والتي قد يكون من اول نتائجها فقدانهم الزعامة التي يتفيأون ظلالها ، والتي تنبع الى حد بعيد من زعاماتهم الوثنية ووجود الكعبة ، رمز وحدة العرب ومحط انظارهم ، بين ظهرانيهم . فهم سدنة هذه الكعبة والمشرفون على خدمتها وحمايتها ، وهي التي اعطتهم ، بمناسك الحج اليها ، وبالالهة الموجودة داخلها ، ما يتمتعون به من مكانة وسيادة .

وكان اخشى مايخشون ان يأتي هذا الدين الجديد ليهدم هذه المقدسات، وبالتالي ليسلبهم ما لهم من سيادة وامتيازات . والى هذه القدسية الدينية لمدينتهم والتي سيادتهم القبلية يعود الفضل في مكانتهم التجارية . فقد كانت اسواق التجارة ، كما ذكرنا ، تعقد في فصول تتلاءم ومواعيد الحج ، وكانت الدول العظمى صاحبة المصالح التجارية في العالم القديم تعرف لمكة وقريش هذه المكانة التجارية ، وتعرف ان الكعبة من أهم اسباب هذه المكانة . فكانت حين تريد التقليل من هذه المكانة توجه حملة ضد الكعبة (حملة ابرهة) لتضرب مركز عظمة قريش وسبب سيادتها . وهكذا فان عيب الالهة وذم الدين الوثني ومقدساته ، كان يمثل بالنسبة لقريش خطرا لا على سيادتها فحسب ، بل على تجارتها ، وبالتالي غناها وازدهارها . وفي هذا على مانعتقد ما يبرر ربط المؤرخين معارضة قريش لمحمد بعيبه الهتها وذم دينها . وتتضح اسباب هذه المعاضة وما تنطوي عليه من خوف كبار رجال المال والاعمال القرشيين على مصالحهم

الاقتصادية ، اذا استعرضنا ما يقوله عروة بن الزبير الراوية الذي لا ترقى الشبهات الى عدالته وضبطه ، في رسالة بعث بها الى عبد الملك بن مروان ، ردا على رسالة من عبد الملك يستفسر فيها منه عن امور تتعلق بفترة صدر الاسلام . يقول عروة في رسالته : « اما بعد ، فانه ـ يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لما دعا قومه لما بعثه الله من الهدى والنور الذي انزل عليه لم يبعدوا منه اول ما دعاهم ، وكادوا يسمعون له ، حتى **ذكر طواغيتهم . وقدم ناس من الطائف من قريش لهم اموال** انكروا ذلك عليه ، واشتدوا عليه ، وكرهوا ما قال لهم ، واغروا به من اطاعهم فانصفق عنه عامة الناس ، فتركوه الا من حفظه الله منهم » . (انظر الطبري ، ج٢ ، ص٣٢٨) .

فالذين قادوا المعارضة بعد ان ذكر الرسول طواغيت قريش ، هم اناس من الطائف من قريش لهم اموال ، وواضح ان خوفهم على أموالهم ، وما قد تؤدي اليه دعوة محمد بن عبد الله من تغيير في هذا الدين الذي كان سبب ثروتهم وجاههم ، هو الذي حدا بهم الى اشعال نار النقمة ورفع لواء المعارضة ضد الدين الجديد .

وطبيعي الا تكون اوضاع مكة قبل الاسلام مقبولة من جميع الناس فيها ، لذا ما كاد الاسلام يتنزل على قلب الرسول الامين حتى استجاب له ، على ما يحدثنا الزهري ، في رواية ينقلها عنه ابن سعد « من شاء من احداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به » ، (ابن سعد ، ج ١ ، ص ١٩٩) . والذي يثير الانتباه في رواية الزهري قوله ان اول المستجيبين لدعوة الرسول كانوا فئتين : **احداث الرجال ، وضعفاء الناس** . ولابد ان نشير الى ان فئة احداث الرجال من المؤمنين الاولين كانت تضم شبابا ينتسبون الى اشهر واقوى الاسر المكية واكثرها نفوذا .

وخير من يمثل هذه الفئة خالد بن سعيد بن العاص الذي كان ابوه من مشاهير رجال المال والاعمال في مكة (انظر ابن هشام ، القسم الاول ، ص ٢٥٩) ونعيم بن عبد الله بن اسيد النحام الذي كان سيد بني عدى ، والذي رغم انه كان من اوائل من اسلم فانه لم يترك مكة ويهاجر الى المدينة حتى السنة السادسة من الهجرة ، ولعل السبب في ذلك انه كان في منعة من قومه ولم تستطع قريش ان تناله باذى (انظر ابن هشام ، القسم الاول ، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩) . ولم يكن خالد ونعيم الوحيدين بين رجالات هذه الفئة ، بل كان هناك عدة اخرون من الشباب الذين يتصل نسبهم باعظم الاسر المكية مركزا ونفوذا ، وكثيرا ماكانت اسرهم في الصف الاول المعارض للرسول ودعوته . حتى انه حين جرت معركة بدر بين الرسول والمكيين ، كثيرا ما وقف الابن ضد ابيه والاخ ضد اخيه وابن العم ضد ابن عمه . كما تضم فئة (احداث الرجال) هذه رجالا أغلبهم من جيل الشباب ولكنهم من اسر اقل نفوذا من الاسر الاولى . ورغم ذلك فهم

في اسرهم وبطونهم من ذوى المكانة والنفوذ . وغالبيتهم كانوا دون الثلاثين حين اسلموا ماعدا واحد او اثنين كانوا في الخامسة والثلاثين .

أما فئة (ضعفاء الناس) التي يشير اليها الزهري في روايته ، فكانت تضم رجالا لاتربطهم صلات قرابة دموية بقبائل مكة او بطونها ، بل تربطهم صلة الولاء او التحالف ، او كانوا رجالا مستضعفين من قبائل مستضعفة لا يستطيعون حماية انفسهم ، أو لا تستطيع قبائلهم حمايتهم . ومن هذه الفئة عبيد بني تيم الذين اسلموا واعتقهم ابو بكر ، وهو من تيم ، ومفروض على قبيلته حمايته وحماية عبيده . ولكن تيم لم تقدم الحماية لابي بكر نفسه ولا لطلحة بن عبيد الله (وهو من تيم ايضا) حين آذتهما قريش وقيدتهما معا عقابا لهما على اسلامهما . ومن هذه الفئة ايضا الشخصان اللذان يتحدث عنهما ابن سعد ويصف استضعاف قريش لهما وهما : صهيب بن سنان وعمار بن ياسر ، اللذان كانا من احلاف تيم وعبد شمس معا . وفي هذا الموقف من تيم ما يذكرنا بما اوردناه انفا حول ظهور نوع جديد من التضامن في مكة هو التضامن المبني على اساس المصلحة التجارية والذي حل محل التضامن القبلي ، الذي كان عرف الصحراء قبل ان تغدو التجارة والمصلحة الاقتصادية محور حياة الناس .

وتجدر الملاحظة في هذا المجال ان كون الشخص له صفة الحليف لا يعني انه دون غيره من افراد القبيلة ، او لا حقوق له عليها ، وكثيرا ما كان الحليف يتمتع بمركز رفيع في القبيلة تفرضه همته وجده وصفاته عموما .

وهكذا فاننا نستنتج من كل ما تقدم ان الدين الجديد غدا بعد تنزله على قلب الرسول الامين دين الشباب الثائر على اوضاع مجتمعه المستعد للتضحية في سبيل تغيير هذا المجتمع وما يسوده من ظلم اجتماعي واقتصادي . كما ان الذين اعتنقوا هذا الدين لم يكونوا طرداء مجتمعهم او خلعاءه ، او الفئة قليلة الشأن فيه ، كما يحلو للبعض ان يصور ، بل كان غالبية المستجيبين له المستميتين في الدفاع عنه من افراد الاسر المتنفذة الذين لا يمكن اعتبارهم الطبقة الدنيا في المجتمع . واذا اردنا تقويما حقيقيا للغالبية العظمى من الاشخاص الذين تقبلوا دعوة الاسلام الاولى لوجدنا انهم كانوا في الاغلب الاعم من الذين ساءتهم احوال مجتمعهم والذين رأوا الامتيازات التي يعيشها رجالات الطبقة العليا في مدينتهم واستغلالهم لخيرات المجتمع واحتكارها لذواتهم . فحين نادى الاسلام نداء الحق والعدل والتوحيد وجدوا فيه ما يتجاوب وما في انفسهم فتقبلوه وناصروه وتفانوا في سبيله . فهذا الصراع الذي شهده المجتمع المكي بعد نزول الاسلام لم يكن صراعا بين اغنياء وفقراء ، كما يحلو للبعض ان يصوره ، بل كان صراعا بين مستغلين (بالكسر) ، وثائرين على الاستغلال رغم انهم قد لا يكونون من بين

المستغلين (بالفتح) . هذه الملامح العامة التي كانت تسم مجتمع مكة قبل الاسلام ، بما فيها من ظلم اقتصادي وطبقية مبنية على اساس من الثروة والجاه والفرصة المنتهزة ، وما ادى اليه كل ذلك من فقد وافتقاد للعدالة الاقتصادية والاجتماعية ، جعلت الاسلام بما رفعه من شعارات وما وضعه موضع التطبيق من مبادىء ، الموئل والملاذ لكل ثائر على الظلم محب للعدالة كاره للاستغلال . ولم تكن دروب الدعوة الى دين الله مفروشة بالورود ، بل كانت الطريق شاقة والمسيرة عسيرة ، وكان الامتحان قاسيا ، فصمد المؤمنون وصبروا على انواع المكاره والاذى ، مما يعرف الجميع خبره ولا اراني بحاجة للتذكير به . وجاء التطبيق العملي لشعار المساواة ، واخوة المؤمنين وتفاضلهم في التقوى فحسب، في الايام الاولى لقيام دولة الاسلامبعد الهجرة الىالمدينة حيناوجد صلوات الله عليه (نظام المؤاخاة) . فقد كانت المشكلة الاولى التي واجهت الرسول بعد الهجرة مشكلة اقتصادية نبعت من واقع اصحابه المهاجرين الذين تركوا اموالهم في مكة وتركوها مملقين لا امل لهم في العودة او استرداد مايملكون . وكان في نفس الوقت يحاول ان يقيم رابطة متينة من الاخوة في الله بين الفئتين الاساسيتين اللتين يتشكل منهما المجتمع الجديد في المدينة ، وهما المهاجرون والانصار . لهذا كله وتوكيدا لوحدة المجتمع الاسلامي الاول اوجد الرسول نظام المؤاخاة . ويقول ابن سعد ان عملية المؤاخاة تمت على مرحلتين : مرحلة آخى فيها الرسول بين المهاجرين بعضهم والبعض الاخر ، ومرحلة اخى فيها بين المهاجرين والانصار .

وكانت المؤاخاة « على الحق والمؤاساة » . وقد نص نظام المؤاخاة هذا على حق التوارث بين المتآخين دون الارحام . (انظر ابن سعد ، ج١ ص ٢٣٨) وكان المتآخون من المهاجرين والانصار تسعين رجلا ، خمسة واربعين من المهاجرين ، وخمسة واربعين من الانصار ، على ماتزعم احدى الروايات ، او مئة على رواية اخرى ، خمسين من المهاجرين وخمسين من الانصار (ابن سعد ، ج ١ ، ٢٣٨) وقد جرت هذه العملية قبل غزوة بدر ، وكان مبررها كما يذكر السهيلي في (الروض الانف) ان الرسول اراد ان يذهب عن المسلمين المهاجرين وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقةالاهل والعشيرة، ويشد ازرهم بعضهم ببعض . وينقص تبرير السهيلي هذا ناحية هامة هي الناحية الاقتصادية ، او بشكل اوضح الوضع المادي المتردي الذي كان يعاني منه المهاجرون المسلمون الذين تركوا ديارهم وجاؤوا الى ديار غريبة ليس لهم فيها مايساعد على اقامة اودهم وأود اسرهم ، فجاء نظام المؤاخاة حلا مؤقتا لازمتهم . ودليل صدق ما نذهب اليه في تبرير نظام المؤاخاة ، ان العمل بهذا النظام وما استتبعه من تنظيم لعملية الميراث توقف بعد النصر الذي حققهالمسلمون في غزوة بدر، وما أفاء الله عليهم من غنائم واموال سدت عوز المحتاجين منهم ، فلم يعد له ما يبرره . ويؤكد ابن سعد في طبقاته هذا التفسير (انظر ابن سعد ج ١ ص ٢٣٨) . كما ان الاية الكريمة التي تقول :

« وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ان الله بكل شيء عليم » . (الانفال ، ٧٥) تنزلت على أثر نصر بدر ، فنسخت ما كان قبلها وانقطعت المؤاخاة في الميراث ، ورجع كل انسان الى نسبه وورثه ذوو رحمه . ويؤكد هذه الحقيقة ابن حبيب في المحبر اذ يقول :

« فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة آخى بين المهاجرين والانصار على الحق والمؤاساة وان يتوارثوا بعد الممات دون ذوي الارحام . . . حتى نزلت سورة الانفال فصارت المواريث للرحم دون المؤاخاة . » (المحبر ، ص ٧١) .

وكان من جملة التدابير التي اتخذها الرسول لتفريج كرب الفقراء من المسلمين الذين هاجروا معه الى المدينة ان أذن للذين لا منازل ولا عشائر لهم ان يناموا في المسجد، وكان يطعم بعضهم معه ، ويطلب من اصحابه القادرين ان يطعموا الاخرين . وقد اطلق على هؤلاء اسم (أهل الصفة) لانهم كانو يأوون الى صفة المسجد. أي المكان المسقوف منه ، وكان أبو ذر الغفاري منهم (انظر ابن سعد ، ج ١ ، ص ٢٥٥ ــ ٢٥٦) .

وتتوضح صورة جانب من جوانب التغيير الذي طرأ على ما كان يسود مجتمع الجاهلية من سنن وقيم ونظم بعد قيام دولة الاسلام وتنزل ايات التشريع مما يورده لنا ابن حبيب حول قضية توريث المرأة . يقول ابن حبيب في الباب الذي يتحدث فيه عن « السنن التي كانت الجاهلية سنتها فبقى الاسلام بعضها واسقط بعضها » يقول ابن حبيب في (المحبر) :

« وكانوا لا يورثون البنات ولا النساء ولا الصبيان شيئا من الميراث . ولا يورثون الا من حاز الغنيمة وقاتل على ظهور الخيل » . وفي هذا ربط واضح بين حق الارث من جهة وبين المقدرة على تحصيل لقمة العيش من جهة اخرى . ولكن الاسلام رفض هذا المبدأ ووضع الامور في مواضعها ، حين عرضت المشكلة للمرة الاولى بعد هجرة الرسول الى المدينة . فقد مات كما يذكر ابن حبيب : « رجل من الانصار قبل نزول اية المواريث ، يقال له أوس بن ثابت من بني خطمة ، وترك اربع بنات الى الدمامة ما هن فاخذ بنو عمه ماله كله . فجاءت امرأة أوس الى النبي صلى الله عليه فقالت: يا رسول الله ، توفي اوس بن ثابت ، وترك مالا حسنا ، فجاء ابنا عمه قتادة وعرفطة ، فاخذا المال ولم يعطيا بناته شيئا ، وهن في حجري لا يطعمن ولا يسقين ، وليس في يدي ما يسعهن . فقال صلى الله عليه : ارجعي الى بيتك حتى أنظر ما يحدث الله فيهن . فانزل الله عز وجل : للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون . ولم يبين ما هو فارسل صلى الله عليه الى قتادة وعرفطة:

لاتفرقا من المال شيئا ، فانه قد نزل لبنات اوس نصيب ، حتى انظركم هو . ثم نزلت اية الميراث : يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ... فاعطى رسول الله صلى الله عليه البنات الثلثين ، والمرأة الثمن » . وهذا المثال واحد من امثلة لاتحصى على ما احدثه الاسلام من تغيير في سنن الجاهلية التي لم ترع للعدالة الاقتصادية والاجتماعية حقا . ولم يكن توريث البنات والزوجات الذي حدثنا عنه ابن حبيب الا حلقة من سلسلة طويلة من التشريعات التي الزم الاسلام بها المؤمنين لاقامة مجتمع المساواة والعدالة . وليس المقصود من هذه الدراسة استقصاء جميع الحالات التي حرص فيها الاسلام على اشاعة عدالة السماء بين الذين امنوا به وربطوا مصيرهم بمصيره ، فهذا كما اشرنا في مطلع بحثنا مما يقصر عنه المجال المخصص لنا ، وسنتركه لنتابع الاطار العام للطريق الذي استنه الاسلام لاتباعه في امور دنياهم التي لاتستقيم الا اذا انسجمت مع ما أمر به الدين ، وأراده لمجتمع يأخذ فيه الله بزمام السلطة ويوجه فيه الاحكام .

ويقودنا كل ذلك الى الحديث عن التغيير الذي تم بعد أن قامت دولة الاسلام في ميدان الطبقية الاجتماعية . ومن اجل فهم هذا التغيير لابد ان نذكر ان الاساس الذي قامت عليه الطبقية الاجتماعية قبل الاسلام، هو نبل الدم وصفاؤه وعراقة المحتد ،الذي فرضته طبيعة الحياة القبلية في مجتمع الجزيرة الصحراوي . كانت القبيلة هي الوحدة الاساسية ، يترأسها شيخ يتمتع الى جانب عراقة النسب بصفات اهمها : الشجاعة والكرم والعلم بامر الحرب وقوة الارادة والصمود امام الشدائد وسداد الراي والحلم والتجربة وسواها . وهو فوق كل هذا صريح النسب غير دعي ولا مستلحق ولا مشكوك في صفاء دمه ، وقضية صفاء الدم كانت الشرط الاهم في الوصول الى الرئاسة والناس في القبيلة انما يتفاضلون بهذا الصفاء ، فاعلاهم سوية هو الصريح الذي ينحدر من ابوين من نفس القبيلة، ويليه الصريح الذي ينحدر من ام صريحة ولكنها من غير قبيلة الاب، ثم ياتي بعد ذلك الموالي والعبيد . وتقوم الرابطة القبلية بين هؤلاء الافراد على اساس من صلة القرابة الدموية التي تربط الفرد بالجد الاعلى للقبيلة الذي تحدر منه افراد القبيلة عموما . اما التحالف فكان يشكل الاساس الثاني من اسس الروابط القبلية . وضمن هذا الاطار ، يجب ان ننظر الى من كانت القبيلة تطلق عليهم اسم **الحليف** أو **المولى** ، وهم الذين كانوا يشكلون طبقة من المواطنين من الدرجة الثانية في المجتمع القبلي . وقد ادى هذا التنظيم الطبقي الذي يقوم على اساس رابطة الدم الى اهتمام عرب الجاهلية اهتماما فائقا بقضية الانساب ، ونشوء علم مستقل هو علم الانساب ، يتخصص فيه اناس منقطعون له هم النسابون ، الذين نقل عنهم النسابون

المتأخرون كل ماكتبوا من مؤلفات في ميدان علم الانساب . وهكذا فقد جاء الاسلام والناس طبقات ، وطبقاتهم هذه يتحكم فيها امران : صفاء دمهم ونبله وعراقة محتدهم من جهة ، وما لهم من مال وجاه ونفوذ وسلطان من جهة اخرى . وطبيعي ان يرفض الاسلام هذه الحال ويقيم معايير جديدة للنظام الاجتماعي تتفق والمبادىء التي اطلقها والاساس الذي قام عليه .

لقد كان الاساس الذي قام عليه المجتمع الجديد في ظل الاسلام هو المساواة ، والمؤمنون سواء عند الله الا فيما فضل الله به بعضهم على بعض من درجات التقوى . يقول الله تعالى : « يا ايها الناس ، انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » . ويأتي المفسرون فيفسرون ذلك بقولهم : « فان التقوى تكمل بها النفوس وتتفاضل بها الاشخاص ، فمن اراد شرفا فليلتمسه » (البيضاوي، ج٢، ٢٧٦) . وواضح من كل ذلك ان المبدأ الذي اطلقته هذه الاية الكريمة هو ان التمايز بين البشر امر غير مقرر لاي سبب كان . وجاءت احاديث الرسول صلوات الله عليه موضحة ومؤكدة لمبدأ المساواة هذا ، فهو الذي قال في خطبة الوداع : « كلكم لآدم وآدم من تراب » ، وقوله : « الناس سواسية كاسنان المشط » . ويؤكد ماذكرناه من ان التقوى هي المعيار الذي يتفاضل الناس على أساسه قوله صلوات الله عليه : « لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى » . ويعتبر طه حسين (الفتنة الكبرى ، ج ١ ص ١٠ وما بعدها) قضية المساواة هذه من اهم ما اثار حفيظة قريش ضد الرسول ، فيقول : « ان الاسلام انما جاء قبل كل شيء بقضيتين اثنتين : اولاهما التوحيد ، وثانيتهما المساواة بين الناس . وكان اغيظ ما غاظ قريشا من النبي ودعوته ، انه كان يدعوها الى هذه المساواة ، ولم يكن يفرق بين السيد والمسود ، ولا بين الحر والعبد ولا بين القوي والضعيف ولا بين الغني والفقير ، وانما كان يدعو الى ان يكون الناس جميعا سواء كأسنان المشط ، لا يمتاز بعضهم عن بعض ، ولا يستعلي بعضهم على بعض . وقد سخطت قريش اشد السخط واعنفه على النبي صلى الله عليه وسلم لما اظهر من ذلك حتى لأكاد اعتقد انه لو قد دعاها الى التوحيد دون ان يعرض للنظام الاقتصادي والاجتماعي ، ودون ان يسوي بين الحر والعبد وبين الغني والفقير ، وبين القوي والضعيف ، اقول : لو قد دعاهم النبي الى التوحيد وحده دون ان يمس نظامهم الاجتماعي والاقتصادي لأجابته كثرتهم في غير مشقة ولا جهد ، أو لأجابه من قريش من اجاب ، وامتنع عليه منها من امتنع دون ان يلقى في ذلك مشقة او عنتا . ومهما يكن من شيء ، فقد سخطت قريش على النبي الكريم ، لانه عرض نظامها الاجتماعي ، وفرض عليها نوعا من العدل لا يلائم منافع ساداتها وكبرائها » .

وفي كلام طه حسين هذا تلخيص رائع الكثير من الافكار التي عرضناها حتى الآن .

على أن مبدأ المساواة هذا ، لم يحل دون قيام نظام تفصيلي للطبقات . فقد نشأت مع مرور الزمن وبمناسبة بعض الاحداث مجموعة جديدة من المعايير لتدريج الجماعة الاسلامية وتقسيمها الى طبقات . وكانت المساواة اول الامر هدفا بحد ذاتها وعامة في كل شيء ، فقد سئل الرسول صلوات الله عليه مرة ان يعفو عن سارقة لانها تنتمي الى اسرة نبيلة ، فاجاب بما معناه : « ان ما اهلك من كان قبلكم انهم كانوا اذا اذنب الضعيف فيهم عاقبوه واذا اذنب الشريف تركوه ، والله لو سرقت فاطمة بنت محمد ، لقطعت يدها » .

وجاء اول الخلفاء الراشدين من بعده ، فمضى على سنته في المساواة بين الناس ، اذ تحدثنا المصادر ان ابا بكر حين قسم غنائم الحرب بين المسلمين ، راعى مبدأ المساواة هذا اشد المراعاة فلم يفرق بين المستحقين سواء كان واحدهم كبيرا ام صغيرا ، عبدا ام حرا ، ذكرا ام انثى . (ابو يوسف ، الخراج ، ط بولاق ١٣٠٢ ،ص ٢٤) ولكن حين آلت الخلافة الى عمر بن الخطاب وضعت بعض المعايير الناظمة لهذه المساواة مع الحفاظ على جوهر الفكرة التي تسوي بين الناس بقطع النظر عن فوارق المولد . وكانت وجهة نظر عمر تنطلق من اعتقاد بان الناس لا يمكن أن يكونوا سواسية من حيث الايمان . ولما كان تقسيم الناس الى طبقات حسب عمق اخلاصهم للدين أمرا عسيرا يستحيل ضبطه ، لذا اوجد عمر أساسين جديدين لتقسيم الناس الى طبقات، وهما : القرابة من الرسول ، والسابقة الى الاسلام . وغدا هذان المبدآن الحد الفاصل في تحديد مركز المؤمن ، وكانت النتيجة العملية التي ترتبت على هذا التقويم الجديد للمؤمنين هي الاختلاف في كمية العطاء السنوي الذي يتقاضاه المؤمن من بيت مال المسلمين . وهكذا قامت ارستقراطية جديدة مبنية على اساس التفاوت في الايمان ، واخذ الناس مراتبهم الاجتماعية على اساسين محددين ، كان المنبع الذي انبثقا منه هو انه لا يمكن ان تكون هناك مساواة بين من حارب لينشر الاسلام ، من حارب ليقضي عليه . وطبيعي ان تلقى تعليمات عمر التي ادت الى اقامة ارستقراطية دينية تحل محل الارستقراطية المبنية على نبل الدم كل اشكال المعارضة من الذين لم يكن ايمانهم عميقا او من الذين تضررت مصالحهم بنتيجة هذا التغيير . ولكن عمر اظهر تصميما لايعرف الهوادة في اصراره على تطبيق هذه المساواة وتفاضل الناس في التقوى ، وحديثه مع جبلة بن الايهم حين ضرب جبلة رجلا من فزارة وهشم له انفه خير مثال على اصرار عمر هذا ، فقد طلب عمر من جبلة ان يرتضي الفزاري والا فانه سيقيده منه . قال جبلة : ماتصنع بي ؟ فاجاب عمر : آمر بهشم أنفك كما فعلت . قال جبلة : وكيف ذاك يا امير المؤمنين ، وهو سوقة وانا ملك . فاجابه عمر : ان الاسلام جمعك واياه فلست تفضله بشيء الا بالتقى والعافية . وكان ما هو معروف من هرب جبلة الى القسطنطينية وتنصره هو وقومه .

وهكذا فقد حرص الرسول الكريم ، ومن آلت اليهم مقاليد السلطة من بعده من صحابته ، ان يقيموا دولة المساواة والاخوة التي دعا اليها الاسلام اشد الحرص ، وان يحدثوا انقلابا جذريا في النظام الطبقي الذي كان يسود مجتمع الجاهلية . ولكن الامور مالبثت ان اخذت اتجاها جديدا بعد عصر الفتوح ، فرضه الواقع الجديد للدولة التي غدت تضم مئات الآلاف من المسلمين غير العرب، والذين كان لا بد لهم من مكان في هذا المجتمع الجديد . وقد ادى كل ذلك الى نشوء واقع جديد اخذت بوادره تظهر منذ خلافة عثمان وهو بروز العرب كطبقة متميزة على من سواها من المسلمين ، بحجة ان العرب هم قوام الاسلام وحملة رايته ، والذين كان لهم فضل هداية الاخرين . فنشأ بنتيجة ذلك ، ومنذ اخريات العهد الراشدي ، نوعان من العصبية ، بدلا عن العصبية القبلية القديمة :

١ ــ العصبية العربية : ومصدرها ان العرب ، بعد ان كانوا قبائل متفرقة ، غدوا امة متحدة في اللغة والدين والهدف والحكومة .

٢ ــ العصبية الدينية الاسلامية : وتضم جميع المسلمين عربا كانوا ام غير عرب .

ونشأ عن هاتين العصبيتين ان الناس اصبحوا اما مسلمين او غير مسلمين ، والمسلمون اما عربا او غير عرب . ورغم بوادر العصبية العربية التي اشرنا اليها ، فقد ظلت قضية الدين هي اقوى الفواصل التي تفرق بين أفراد المجتمع ، وظل هناك حاجز كبير بين المؤمن وغير المؤمن . ولعل الاساس في هذا انهم كانوا يؤمنون انه ليس هناك ولا يمكن ان تكون هناك مساواة بين مسلم وغير مسلم . فالاسلام في نظر المسلمين خاتم الاديان والطريق المستقيم والحقيقة النهائية والازلية. والمسلم بالتالي وبالضرورة اعلى مقاما من اولئك الذين يتبعون ديانات ادنى قدرا من الاسلام . وبفضل هذا التفوق اصبح للمسلمين حقوقا عليا في الحكم .

ليس من اهداف هذا البحث ان يتطرق للحديث عن الطبقات الاجتماعية في عصور الاسلام المختلفة ، وان ما اوردناه من حديث عن الانقلاب الذي احدثه الاسلام في اسس النظام الاجتماعي كان يهدف الى تبيان الاسباب التي دعت قريش لمعارضة دعوة محمد بن عبد الله ، وهو موضوع بحثنا . ولكن لابد لنا من ان نذكر ان عصبية النسب التي كانت عماد النظام الاجتماعي قبل الاسلام ، قد تحولت في عصر صدر الاسلام الى وجهة دينية ، فأصبح اشرف الانساب اقربها الى الرسول ، وبالتالي اصبحت قريش بشكل عام ، وهي قبيلة الرسول ، وآل هاشم ، وهم ال بيت الرسول ، في اعلى طبقات

الشرف . ويتبعهم اصحاب السابقة في الاسلام من العرب وسواهم . وبالرغم من ان الاسلام هاجم الاساس الذي بني عليه نظام الطبقات في الجاهلية وهو عراقة النسب، واعتباره النسب شيئا لاغنى فيه عند الله ، وتأكيده المساواة بين المؤمنين جميعا ، فقد نشأت منذ صدر الاسلام ارستقراطية مبنية على اساس شرف الدم ، ولكن شرف الدم هذا مرتبط بصاحب الدين الجديد ، محمد رسول الله .

وبعد ، فهذه بعض من ملامح التغيير الذي احدثته دعوة الاسلام التي اطلقهـا صادقة مخلصة محمد بن عبد الله ، فارتعدت لها فرائص من كانوا يتربعون على عروش المال والجاه من قرشي مكة ، وكانت لهم السيادة والجاه ، على من سواهم مـن مواطنيهم ، فقاتلوا قتال المستميت ليطفئوا نور الله ولكن الله بالغ امره .

وليس من شك في ان نصر الاسلام على من وقفوا في وجهه . كان حصيلة ايمان عميق وجهد صادق ، ما لبثت ان اينعت ثماره حضارة ومجدا ونورا عم افاق الارض من مشارقها الى مغاربها .